



النُّصْرَةُ: هي طلب النصر والعون.

والأسباب التي يحصل بها النصر نوعان:

أسباب مادية ملموسة، وهذا النوع هو المشار إليه في قوله تعالى: {وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: 60]، أي: **وَأَعْدُوا لِأَعْدَائِكُمْ كُلَّ مَا تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُوَّةِ الْعُقْلِيَّةِ وَالْبَدْنِيَّةِ وَأَنْوَاعِ الْأَسْلَحَةِ وَالآلاتِ وَنَحْوِ ذَلِكِ مَا يُعِينُ عَلَى قَتْلِهِمْ**.

ويلاحظ أنَّ هذا النوع هو الذي يغلب على قلوب أكثر الخلق، ويعلقون به وحده حصول النصر والرزق، وفي هذا من قصر النظر وضعف الإيمان وقلة الثقة بوعد الله وكفايته ما الله به عليم. فالنصر ليس بكثرة عَدٍ ولا عُدُدٍ، وإنما هو بيد الله الواحد القهار، الذي يخذل مَنْ ي يريد خذلانهم مهما بلغوا مِنْ الكثرة والقوة.

وفي هذا تنبئه لنا أَلَا نعتمد على الأسباب مهما بلغت، فما هي إِلَّا طمأنينة القلوب وتَنْتَيْتُ لها على الخير والحق، أَمَّا النصر الحقيقى الذى لا معارض له فهو من عند الله، كما قال جل شأنه: {وَمَا النُّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران: 126].

ولهذا أدب الله عز وجل صحابة نَبِيَّه - وهم خيار الخلق - حين أَعْجَبَ بعضهم بكثرتهم في غزوة حنين حتى قال قائلهم: «لَنْ تُعْلَمَ الْيَوْمَ عَنْ قِلَّةٍ»، فَوَكِلُوا إِلَيْ هذه الكلمة، فـكانت الهزيمة في الابتداء، وفرَّ معظم المسلمين من الميدان، واشتدت عليهم الأزمة حتى ضاقت عليهم الأرض - على رحبها وسعتها -، ثم ولوا منهزمين، إِلَّا رسول الله؛ فِإِنَّه ثبت ولم يَفِرْ، وصمد ولم يتخاَل، بل كان يدعوه بدعائه الخاشع قائلًا: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضْدِي وَأَنْتَ نَصِيرِي بِكَ أَحُولُ وَبِكَ أَصُولُ وَبِكَ أَفَاتِلُ.. فَلَمَا زَالَ الْعُجْبُ عَنِ الصَّحَابَةِ وَعَرَفُوا ضَعْفَهُمْ، أَنْزَلَ اللَّهُ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا مِنْ عَنْهُ يَثْبُتونَهُمْ وَيَبْشِرُونَهُمْ حَتَّى تَحْقِقَ النُّصْرَةُ.

وأما النوع الثاني: فهو الأسباب المعنوية، وهي قوة التوكيل على الله، وكمال الثقة به، وقوة التوجّه إليه والطلب منه. وهذه الأمور تقوى جدًا من الضعفاء العاجزين الذين أجأتهم الضرورة إلى أن يعلموا حق العلم أن كفايتهم ورزقهم ونصرهم من عند الله، وأنهم في غاية العجز، فتنكسر بذلك قلوبهم، وتتوجّه إلى الله ثقة به وطمعًا في فضله وبرّه ورجاء لما في يديه الكريمين.

فَيُنْزِلُ اللَّهُ لَهُم مِّنْ نَصْرٍ هُوَ أَكْبَرُ وَرِزْقٍ مَا لَمْ يَخْطُرْ لَهُمْ بِيَمَّا، وَلَا دَارَ لَهُمْ يَوْمًا فِي خِيَالٍ

والسر في ذلك أنَّ لِلَّهِ جُنُودَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، جَمِيعُهَا فِي مَلْكِهِ، وَتَحْتَ تَدْبِيرِهِ وَقَهْرِهِ، وَهِيَ لِفَرْطِ كَثْرَتِهَا لَا يَعْلَمُ حَقِيقَتِهَا وَعُدُودُهَا وَقَدْرَتُهَا إِلَّا هُوَ سَبَّانُهُ، فَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَكْشِفُ عَمَّا يَرِيدُ الْكَشْفُ عَنْهُ مِنْ أَمْرِهَا، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرِيدُ وَبِالطَّرِيقَةِ وَالْهَيَّةِ الَّتِي يَرِيدُهَا، لَذَا فَهِيَ غَيْبٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودُ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرًا لِلنَّاسِ} [المدثر: 31].

وقد يَعْجَبُ إِلَيْنَا حِينَ يَعْلَمُ أَنَّ مِنْ هَذِهِ الْجُنُودِ الْمُعْذِلُونَ وَالْمُرْضَى وَذُوِّي الْحِلَاجَاتِ الْخَاصَّةِ، وَلَوْلَا وَرُودُ النَّصْوصِ الصَّحِيحَةِ فِي ذَلِكَ لَكَانَ الْأَمْرُ مُحْوِرًا جَدًّا وَأَخْذَ وَرَدًّا، **وَأَسْوَقَ مِنْ هَذِهِ النَّصْوصِ اثْنَيْنِ:**

الأول: ما أخرجه الإمام البخاري في كتاب الجهاد والسير من صحيحه - باب: مَنِ اسْتَعَانَ بِالْمُعْذِلُونَ وَالصَّالِحِينَ فِي الْحَرْبِ - عن مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، قال: رأى سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، أنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ تُتَصْرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعْفَائِكُمْ».

أراد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ حَضْنَ سَعْدٍ عَلَى التَّوَاضُعِ وَنَفْيِ الزَّهُو عَلَى غَيْرِهِ وَتَرْكِ احْتِقارِ الْمُسْلِمِ فِي كُلِّ حَالَةٍ.

وَالسُّؤَالُ الَّذِي قَدْ يَتَبَادرُ إِلَى الذهنِ: مَا الْمَنْزِلَةُ الَّتِي أَرَادَ سَعْدًا أَنْ يُتَمِيزَ بِهَا عَنِ إِخْرَانِهِ؟

نجد الجواب شافياً وتبين لنا الصورة كاملة حين نضم الروايات بعضها إلى بعض، ففي رواية الإمام عبد الرزاق: قال سعد يا رسول الله: أرأيت رجلاً يكون حامية القوم ويدفع عن أصحابه أيكون نصيبه كنصيب غيره؟ فذكر الحديث، وعلى هذا فالمراد بالفضل - كما يقول الحافظ ابن حجر - إرادة الزيادة من الغنيمة، فأعلمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ سهام المقابلة سواء، فإنْ كان القوي يترجح بفضل شجاعته، فإنَّ الضعيف يترجح بفضل دعائه وإخلاصه.

والاستفهام في الحديث للتقرير، أي ليس النصر وإدرار الرزق إلا ببركتهم، فأبرزه في صورة الاستفهام ليدل على مزيد التقرير والتوضيح.

الثاني: ما أخرجه الإمام أحمد والترمذى عن أبي الدرداء، قال: سمعتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَبْغُونِي ضُعْفَائِكُمْ، فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُتَصْرُونَ بِضُعْفَائِكُمْ».

ومعنى «أَبْغُونِي» أي اطلعوا رضائي في ضعفائكم، وتقرموا إليني بالتقرب إليهم وتفقد حالهم وحفظ حقوقهم والإحسان إليهم قولهً وفعلاً واستئصاراً بهم، فهم الأحق بمجالستي وبالقرب مني.

ومعنى إنما تتصرون وترزقون بضعفائكم: أي إنما تتمكنون من الانتفاع بما أخرجنا لكم وتعاونون على عدوكم ويدفع عنكم البلاء والأذى بسبب وجود ضعفائكم بين أظهركم، أو بسبب رعايتكم لهم أو ببركة دعائهم، وذلك لأنهم أشد إخلاصاً في الدعاء وأكثر خضوعاً في العبادة لجلاء قلوبهم عن التعلق بزخرف الدنيا، ومن هنا استدل بعض العلماء على استحباب إخراج الشيوخ والصبيان في صلاة الاستسقاء؛ فالضعفيف إذا رأى عجزه وعدم قوته تبرأ عن الحول والقوة بإخلاص، ورق قلبه واستكان لربه وتضرع إليه، فيستجيب الله دعاءه ويتحقق له رجاءه، وكم من فتنة قليلة غلت فتنة كثيرة بإذن الله، بخلاف القوي فإنه يظن أنه إنما يغلب الرجال بقوته، فيكله الله إلى نفسه على قدر عجبه، ويكون ذلك سبباً للخذلان.

والمقصود بالضعفاء:

مَنْ يَكُونُ ضَعْفًا فِي بَدْنِهِ (الْمَرْضُ الْجَسْمَانِيُّ)، أَوْ فِي نَفْسِهِ (الْمَرْضُ الْذَّهْنِيُّ وَالنُّفُسِيُّ)، أَوْ فِي حَالِهِ (الْفَقْرُ وَقَلَةُ ذَاتِ الْيَدِ)؛

والنحوش تشمل الأنواع الثلاثة، فإنْ قيل بـأَنَّ المقصود بالضعفاء هم من يستضعفهم الناس لفقرهم ورثاثهم، لأنهم هم الذين يستطيعون الدعاء والصلوة، كما في رواية النسائي: «قال صلى الله عليه وسلم: إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها: بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم».

فالجواب أَنَّ الدعاء والصلوة والإخلاص قد تتحقق في النوعين الآخرين ليس من المريض نفسه، وإنما مِمَّن يقوم على رعايته، فكم من مريض يتضرع أهله إلى الله وتنكسر له قلوبهم أكثر من صاحب المرض ذاته.

الجمع بين التوكل واليقين وبين الأخذ بالأسباب:

قد يظن القارئ الكريم أَنَّ هناك تعارضًا بين النصوص السابقة والنحوش التي تمدح المؤمن القوي وتأمره بالأخذ بالقوة والاستعداد للأعداء. وعند التأمل نجد أَنَّه لا تعارض، إذ المراد أَنَّه متى تمكن المسلم من الأخذ بأسباب القوة المادية وتيسّرت له، فعليه أَنْ يسارع ولا يفرط ولا يقصر.

وقد ورد الجمع بين الأمرين في قول الله عز وجل لنبيه: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: ٩٩].

والمعنى: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات البدنية والمالية والقلبية، حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك، وقد امتنع أمر ربه بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم، فلم يزل دائياً في العبادة بجميع أنواعها حتى أتاه اليقين. كما جمع النبي الكريم بين الأمرين في قوله: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ....».

فقوله: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ» أمر بكل سبب ديني ودنيوي، بل أمر بالجد والاجتهاد فيه والحرص عليه، نية وهمة، فعلاً وتدبرًا.

وقوله: «واسْتَعِنْ بِاللَّهِ» أمر بالاعتماد التام على الله في جلب المصالح ودفع المضار، مع الثقة التامة بتحقيق ذلك. أَمَّا إذا لم يتمكن المسلم من الجمع بين الأمرين - كأن حبسه المرض في نفسه أو غيره -، فعليه خفض الجناح ورقة القلب والانكسار بمشاهدة جلال الجبار.

والخلاصة أَنَّ قلب العبد وجوارحه في حالة استنفار تام في ذات الله؛ فالجوارح تستفرغ الوسع في الأسباب حتى يحس صاحبها من نفسه أَنَّه لا مزيد، والقلب يستجلب رضا الله وعونه وثقته ورجاءه والطمع فيه، فإنْ حدث وقعت به الأسباب فليتحرك بقلبه إلى الله، فإنَّ الله منجز له ما وعد، وليس هذا فحسب، بل ربما تَفَجَّرَتْ ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه. فلنحرص على تذكير الضعفاء وذويهم بهذه الْمِنَّة، وأن يقبلوا من الله صدقته، وأَلَا يستصرفوا جهودهم، فدعاؤهم لا يقل تأثيراً في الأعداء عن تأثير المدافع والدبابات.

اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لَنَا شَأْنَا كُلَّهُ، وَلَا تَكُلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِّنْ خَلْقَكَ.